الأدب فى سير أعلامه :

ملـــتن . . .

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال . . .]

للاســـتاذ محمود الخفيف

— ٣٣ —

عود إلى الشعر :

وانطوى ربيع الأليزابيثيين فكان من الحانه التى احتبست بانطوائه تلك المقطوعات ، وظل الحال كذلك حتى جاء ملتن فى صيف البيوريتانز ، فغنى فى طلائع ذلك الصيف ألحان الربيع الراحل ؛ وجدد هذا الطائر المتخلف لحن هاتيك المقطوعات . وكان ملتن يحب إيطاليا فازداد حباً لتلك المقطوعات فى أول عهده بالشعر وهو فى جنة الشباب وريعانه ؛ وكيف لا يتغنى شاعر مثل ملتن بهذا الضرب من الأغانى وفى نفسه من الخواطر وفى خصائص شعره من الموسيقى وسحر اللفظ ما يجعله كأنما خلق لهذا الغناء وحده . على أنه كان مقلا فلة تبعث على كثير من الأسف ، وذلك لانشغاله بأمور الدين والسياسة وإن كانت أكثر مقطوعاته وليدة هذا الانشغال

ولكنه على إقلاله قد أضاف إلى تاريخ تلك المقطوعات فصلا ممتعاً رائعاً فى أدب قومه . ولقد كانت مقطوعاته من بعده كالوحى لشعراء القرن التاسع عشر من قادة المذهب الابتداعى وفى مقدمتهم وردزورث الذى أعجب إعجاباً شديداً بمقطوعات ملتن ودأب على محاكاته ، ويتضح هذا الإعجاب فى مقطوعته التى بدأها بقوله : « أى ملتن ، إنه لينبغى أن تكون موجوداً فى هذه الساعة ، فإن انجلترة فى حاجة إليك » ؛ والتى وصفه فيها بأن نفسه كالكوكب فى سموه ومنعزله ، وأن له صوتاً ينبعث كما ينبعث صوت البحر ، طاهراً كالسماوات الصافية العارية عليه سيماء الجلالة والحرية ، وأنه خالد يتنقل مسافراً فى طريق الأبدية . وقد تبع وردزورث فى إعجابه بملتن بيرون وكيتس وبرونتج وأرنولد وروزتى وتنيسون ، ولهذا الأخير مقطوعة رائعة تغنى فيها بمجد ملتن بدأها بقوله : « يا ذا المِقْوَل القدير ، يا مبدع النغمات والألحان ، إليه يا من وهب المهارة ليغنى للزمن أو الخلود ، يا من هو لانجلترة صوت أرغنها جاءها هبة من الله ... ملتن هذا الإسم الذى سوف يرن فى مسامع الأجيال »

وليس بين ما تغنى به ملتن من مقطوعات وبين ما أوحت به مقطوعاته إلى هؤلاء الأفذاذ الذين افتتنوا به شىء يذكر من هذا الضرب من الغناء ، وهذه هى القيمة التاريخية لمقطوعاته وخطرها فى أدب قومه

لم يترك ملتن إلا أربعاً وعشرين مقطوعة ، منها خمس نظمها بالإيطالية ، ويرجح نقدة الأدب أنه نظم هذه الخمس أثناء مقامه بإيطاليا ، وهى من أغانى الحب ، وجهها الشاعر الشاب إلى غادة إيطالية من بولونا سحرته بسمرة محياها وبقلتيها الدعجاوين اللتين افتتن بهما لأنه كان بهذا الدعج مولع كما قال ، وبصوتها الحلو وغنائها المطرب الذى هو كفيل أن يسحر القمر السابح ؛ وقد تغنى الشاعر بجمال فاتنته وشكا من قسوة قلبها عليه كما يشكو الشباب فى أول عهدهم بالحب !

أما عن الطريقة التى جرى عليها فى نظم هذه المقطوعات الخمس ، فإن اثنتين منها جاءتا وفق الطريقة الإيطالية ، وجاءت الثلاثة الباقية مزيجا من الإيطالية والإنجليزية على صورة اتبعها ملتن ذلك الذى كان كثيراً ما يحب أن يتخلص من الأوضاع المتبعة والقيود

والذى يعنينا فى الواقع هو مقطوعاته الإنجليزية ، ونحب قبل أن نتحدث عن مادتها وعن قيمتها الفنية أن نشير إلى ما اتبعه الشاعر فى نظمها ، لأنه لم يجر فيها جميعاً على طريقة واحدة ، إذ أنه لم يتقيد بالطريقة الإيطالية فيها جميعاً ولا بالطريقة الإنجليزية أو الشكسبيرية ، وإن كان فيها محافظاً أكثر منه مجدداً

ويمكن القول بوجه الإجمال أنها جميعاً أقرب إلى الطريقة الإيطالية إلا الحادية عشرة منها ، وهى جميعاً إيطالية الصدر أو الفاتحة ، وهى كذلك جميعاً إيطالية الخاتمة ماعدا الحادية عشرة ، فهى فى خاتمتها مزيج من الإيطالية والشكسبيرية ؛ بيد أن ملتن

لم يتقيد فى بعضها بإحداث تغيير فى القوافى بين الفاتحة والخاتمة بل تركها تنساب كما هى بعد السطر الثامن . ونستطيع أن نقسم مقطوعاته التسع عشرة على النحو الآتى : تسع إيطالية من جميع الوجوه ، وثمان إيطالية ولكن بغير فاصل بين الفاتحة والخاتمة ، وواحدة هى الحادية عشرة بين الإيطالية والإنجليزية ، وهى التى وجهها إلى كرمول ، وواحدة هى التاسعة عشرة أو الأخيرة ذات ذيل بعد خاتمتها . ولم نشر من قبل إلى هذا النوع الأخير ، فنقول الآن : إن هذا النوع المذيل ليس من ابتكار ملتن ، ولكن وقع مثله فى مقطوعات الإيطاليين ، وإن كان ذلك مما ندر ، فإن بعض الشعراء كانوا يضيفون سطرين أو خمسة إلى الأربعة عشر سطراً التى تتكون منها المقطوعة إذا لم يستطيعوا أن يعبروا عن المعنى كله فى هذا العدد من الأسطر ، وكان بعد هذا الضرب معيباً ضعيفاً ولذلك قلما لجأ إليه الشعراء . ولم يخل من هذا الضعف ملتن نفسه فى ذلك الذيل الذى أضافه إلى مقطوعته الأخيرة : « إلى مستكرهى الضمائر الجدد فى عهد البرلمان الطويل » ، ففى هذا الذيل ما ينبو عن الذوق من خشونة وعامية وتلاعب باللفظ .

أما عن مادة هذه المقطوعات ، فيجدر بنا أن نذكر ما سلف به القول من أنها قيلت فى مناسبات ، ولذلك جمعت بين الخواطر السياسية والدينية والوطنية وما يتصل بالرثاء والحب والمسائل الشخصية . وكانت المقطوعات قبل ملتن تدور على الحب ، وتدر فيها ماخرج عن هذا المجال سواء عند الإيطاليين وعند الأليزابيثيين ولذلك مال بعض نقدة الأدب إلى استصغار شأن المقطوعات على العموم ونظرهم إليها نظرتهم إلى التافه من الأشياء ، فهى عندهم من مظاهر العبث واللعب وملء الفراغ بما لا يجدى ، وليس فيها صدق ولا علم ولا فائدة من أى نوع . ولعل لهؤلاء بعض العذر فيما ذهبوا إليه ، فإن شعراء الشباب كثيراً ما كانوا ينظمون خواطرهم فى مقطوعات وليسوا جميعاً مجيدين فشاع فيها الضعف والفسولة ، ولكن قدراً منها كان محكم السبك رائع المعنى صادق العاطفة جليل الشاعرية كما يتبين فى أكثر مقطوعات سبنسر وفى مقطوعات شكسبير جميعاً على كثرتها ، إذ قد بلغت مائة وخمسين مقطوعة ، وما جعل بعض النقاد يحتقر شأن المقطوعة كضرب من ضروب الشعر إلا سأمهم من نغمات الحب الشاكية الباكية فى معظمها ، وظنهم أنها ما نظمت إلا على سبيل اللهو وإبراز المقدرة على النظم ، فإن كان فى بعضها شىء من الصدق ، ففيها كذلك كثير من المبالغة والكذب !

وجاء ملتن فخرج بالمقطوعة عن مجال الحب وجعلها لكل ما يخطر على قلبه ، فاكتسبت المقطوعة على يده قوة وخطراً وطبعت بطابع الصدق والإخلاص ، وجرت فيها إشارات إلى أمور تتصل بالعلم أو بالفلسفة فألبسها ذلك كثيراً من الجد والفائدة وليس هذا الاتحاد بالأمر الهين فى تاريخ المقطوعة إذا ذكرنا أنه أوحى إلى شعراء القرن التاسع عشر أن يحذوا حذوه ، فكان لمقطوعاتهم فى الحرية والسياسة وانتقاد عيوب المجتمع وأشباه ذلك من المسائل قيمة عظيمة وأثر بعيد فى القلوب والأذهان ما كان يتفق لها لو أنها اقتصرت على التغنى بمعانى الحب والجمال . ويتجلى أثر ملتن فى هذا التوجيه فى مقطوعة وردزورث التى أشرنا إليها والتى يقول فيها شاعر القرن التاسع عشر : « إن انجلترة فى حاجة إلى ملتن » والتى يذكر فيها شكواه قائلا : « نحن قوم طغت علينا الأنانية ، فارجع إلينا وارفعنا وامددنا بالمثل فى الآداب والفضيلة والحرية والقوة »

ويحس من يقرأ مقطوعات ملتن أنها نفثات نفس عظيمة وهمسات روح قوية ، وهى على قلتها زاخرة بفيض من الخواطر ، ويرجع ذلك إلى طبيعة المقطوعة فى بنائها كما يرجع إلى مقدرة ملتن العظيمة على الإيجاز البليغ الذى جعله يعبر بالكلمات القلائل عن المعنى الواسع الكثير الوشائج ، وهى مقدرة جعلها مكولى من أبرز خصائص شعره ، بل جعلها خاصته التى يمتاز بها من أكثر الشعراء ، وهى من ألزم الصفات كما ذكرنا لبناء المقطوعة

وحسبك أن تقرأ فى هذه المقطوعات العاطفة الرقيقة التى تعبر عنها النغمة الهادئة الرخية كأنها نسمات الفجر ، إلى جانب الصرخة الصاخبة المدوية كأنها هياج العاصفة أو اصطخاب الموج ، لتعرف كيف استطاع ملتن أن يجعل من المقطوعة شيئاً آخر قوياً مهيباً له خطره وأثره ، وتجد مثالا للأولى فى إشارته إلى ما أصابه من عمى وفى فقد زوجته الثانية ، وتجد

مثالا للثانية فى غضبته لمذابح بيدمنت وحملته على مستكرهى الضمائر من البيوريتانز ، وفى سخريته ممن انتقدوا كتيباته من خصومه . وبين هذا وذاك تقع على نغمات تتصف بالقوة والجلال وهى التى مجد بها أبطال قومه مثل فيرفاكس وكرمول ، والتى دافع بها عن الحرية الدينية والسياسية

بهذه الصفات وأمثالها رفع ملتن المقطوعة مكاناً علياً ، فلم تعد كما كانت مجرد أغنيات غرامية رائعة أو مائعة ، وإنما أصبحت هتاف شاعر يهيب بقومه إلى جانب كونها خلجات نفس تتألم وتتفجع كسائر النفوس ، وما أصدق وأجمل كلمة وردزورث التى وصف بها المقطوعة على يد ملتن إذ قال : « لقد أصبحت هذه بوقا فى يديه »

ولئن خرج ملتن بالمقطوعة عن نطاق الإليزابثيين ومن قبلهم من الإيطاليين ، واتخذ منها أداة لخواطره السياسية والاجتماعية إلى جانب خطراته المنحصرة فى حياته الشخصية ، فإن تمكنه وصدقه قد جعلا لمقطوعاته فى السياسة والاجتماع من الجمال والسحر ما تسمو به إلى مستوى الآثار الأدبية الرفيعة ، وأعانته ضلاعته على أن يلبس الآراء السياسية لباس الأدب الصحيح ، ويضفى عليها رونق الفن وروعته وهو عمل يستعصى على من لم يكن له مثل عبقريته . ولما كانت المقطوعة عند الايطاليين والاليزابيثين شكاة فى الأكثر من حبيب قاس أو من ضنى الحب وسهده ووجده فقد ألفتها النفوس فى هذا المجال وإن كان قد تطرق إليها بسبب هذا الفتور والصنعة حتى استصغر شأنها بعض النقدة كما أشرنا .

ويُعد خروج ملتن بها عن نطاقها جرأة فى الفن تنهض دليلا على فحولته وصدق شاعريته يضاف إلى ما تواتى له من أدلة وذلك فضلا عن كونه فتحاً فى تاريخ المقطوعة صار له ما بعده .

ولقد أشرنا إلى أكثر هذه المقطوعات كلا فى موضعها من سيرته أو فى المناسبة التى نظمها الشاعر فيها ، وكانت بمقطوعته التى ناجى فيها البلبل أول شبابه هى باكورة مقطوعاته الانجليزية وتليها المقطوعة التى نظمها بعد ذلك بقليل بمناسبة بلوغه الثالثة والعشرين من عمره ، وكلتاهما من المقطوعات التى تدور حول شخصه ، ومن أشهر تلك المقطوعات الشخصية ما نظمه حين أصيب بفقد بصره ثم تلك المقطوعة التى رثى بها زوجته الثانية . أما مقطوعاته العامة فأولها مقطوعة جميلة لم نشر إليها من قبل وهى التى اتخذ عنوانها « حينما أزمع مهاجمة المدينة » وكان ذلك سنة ١٦٤٢ إذ تهددت جنود شارل مدينة لندن ، وهو يخاطب فيها الفرسان ألا يزعجوه فى مأمنه وألا يزعجوا الشعر فى منعزله وحزاؤهم على ذلك أن يخلد أسماءهم بثنائه ويشير فيها إلى ما فعله الاسكندر الأكبر حين حطم مدن مقدونيا فانه استثنى البيت الذى كان يعيش فيه من قبل الشاعر بندار ، وكذلك فعل ليساندر القائد الأسبرطى فانه أنقذ أثينا من الدمار لأنها أنجبت يوروبيدس وكان القائد قد سمع بطريق المصادفة شيئاً من شعره . ومن أشهر هذه المقطوعات العامة مقطوعة عن مذابح بيدمنت وتلك التى مجد فيها فيرفاكس ثم تلك التى رفعها إلى كرمول .

ولسنا بحاجة إلى كثير من القول لبيان قيمة تلك المقطوعات جميعاً من حيث بلاغة الشعر فيها وروعته ، فان خصائص شعر ملتن كما أسلفنا كانت مما يوائم بناء مثل هذه المقطوعات ؛ ولقد كانت جزالة اللفظ مع إشراقه وجماله ووجازته وأداء المعنى المراد لا أكثر منه ولا أقل من أبرز خصائص شعر ملتن ، وكذلك كان من خصائصه قوة تأثيره فى النفوس بما توحيه ألفاظه من رؤى وأطياف ومايتداعى إلى الخاطر عند سماعها من معان وأخيلة كأنما كان للفظه قوة خفية سحرية لا تنكر وإن كانت لا تدرك ؛ أضف إلى هذا موسيقى عذبة ناتجة من ائتلاف الألفاظ وصوغها وإضافة بعضها إلى بعض على صورة تكسب كلا منها جمالا لا يكون له فى غير هذا الوضع وتجعل منها فى مجموعها لحناً عجيباً تستشعره النفس كما تستشعره الأذنان ، ويرى أكثر النقاد أن هذه الخصائص واضحة فى هاتيك المقطوعات لم تشذ إلا فى أسطر قليلة أو فى كلمات معدودات كانت أقرب إلى لغة العوام فى مقطوعة من المقطوعات التى هاجم فيها الشاعر منتقدى فلسفته فى الطلاق من خصومه .

(يتبع)

الخفيف